# نظرة العلم للحب

للاستاذ يحيى جمال الدين الحامي

— ١ —

## تصدير (*)

لم يكن الحب بمفهومه الحالي معروفا في العصور القديمة بل كان جنسياً يهدف الى ارضاء الغريزة الجنسية واشباعها ولذا كان الزواج وقتيا غير مقيد اى ان المرأة لم تكن لترتبط مع الرجل برباط شرعي متين بل كانت تجامع اليوم زيدا وغدا عمروا وبتحول المجتمع وتطوره من حالة الفوض والشيوع الى حالة الملكية الجماعية او القبلية تطور الزواج تبعا لذلك الى زواج الاشتراك ولكن الحب بقي كما كان طبيعيا وعندما ظهر مفهوم الملكية الفردية المصطبغ بالانانية ظهر الحب ثم تطور من معناه الطبيعي الغرزى نتيجة للحرمان والكبت الى اسمى معانيه وهو الحب العذري .

ولكن نظرة العلم الى الحب فى الوقت الحاضر تختلف كثيرا عن المفهوم الاجتماعي له فيجب ان يخضع كغيره من العواطل الاجتماعية العديدة التي يبحث علميا الى مقاييس واحكام العلم الصارمة فقد انزل من علياءه وجرد من عرشه المزركش ليخضع كغيره الى التجارب العلمية التي لاتعتمد الا على الحجج المادية المحسوسة .

ويجد ربنا قبل الخوض فى صلب الموضوع ان نلقي نظرة

وجيزة الى ماسبقنا من اجيال نرى انه فى أقدم الاخبار عن عرب الجاهلية وهو ماروا ه السائح اليوناني الشهير «ستراسبون» في معجمه الجغرافي المشهور « والاملاك عندهم مشتركة اي تخص جميع اعضاء العائلة التي يرأسها شيخ وهو اكبرهم سنا ولهم جميعا امرأة مشتركة يختلفون اليها فمن جاء منهم قبلا دخل عليها وترك في باب الخباء عصاه يشير بذلك الى اختلائه بها لكنها في الليل لاتجامع الا اكبرهم سنا » ويستنتج من هذا ان مفهوم الحب الحالي لم يكن قد عرف قط لانه كان مباحا لرجال القبيلة الواحدة ان يجامعوا نساءها بدون تقييد ولاحصر بمعنى ان المرأة لم تكن تخص شخصا معينا وانما كان الحب جنسيا محضا كما رواه ستراسبون بأن « خمسة اخوة تشقوا اختا لهم وهي بنت احد الامراء فكانوا يختلفون اليها واحدا بعد الآخر حتى سأمت ذلك وتوصلت بحيلة الى التخلص منهم» وذكر الكاتب اللاتيني اينوس مارسيلينوس ان عرب الجاهلية كانوا يفضلون النكاح الوقتي على غيره لانهم « يقضون عمرهم في التجول والتنقل ونساؤهم يجامعن من اردن من الرجال لاجل مسمى بعد ان ياخذن اجورهن فريضة ولكي يقربوا هذا الجماع من الزواج كانت الامرأة تقدم لزوجها بصفة مهر رمحا وخباء تختبئ داخله متى اراد ذلك زوجها » ويعلق بندل الجوزي مترجم كتاب الامومة عن الالمانية على هذا بان الراوي هذا روماني وقد شبه العرب بالرومان الذين تهدى الامرأة منهم صداقها للرجل مع ان ذلك بالعكس عند العرب . ويقول ويلكن الجرماني ان هذا الضرب من الزواج هو نفسه زواج المتعة الذي احله محمد « ص » لاصحابه عند دخوله مكة ثم حرمه عمر من بعده وقد تضاربت الآراء في تحريم المتعة واباحتها ولا يهمنا في هذا الصدد تحريمها اوقبولها الا اننا نقول ان الحب في هذه الفترة كان حبا جنسيا طبيعيا ويؤيد ذلك ماروى عن ابن مسعود من ان « محمد « ص » لما سمع في احدى غزواته بان اصحابه عازمون ان يستخصوا لقلة النساء نهاهم عن ذلك ورخص لهم ان ينكحوا المرأة بالثوب اوبمثله الى اجل » ورواية ابن عباس من ان « العرب كانت تتتجأ للمتعة كلما كانت تنزل في احدى المدن فكان الواحد

---

(*) المصادر

١ — الامومة عند العرب — بقلم ج . ا . ويلكن . ترجمة بندل الجوزي .

٢ — فسيولوجية الجنس — بقلم كنث ولكر .

٣ — علم النفس الجنسي — بقلم هيفلوك اليس .

٤ — كيان السلوك البشرى — بقلم جوليان ملكمورون

٥ — المؤلفات الاساسية — لسكوندفرويد وضع . ا . ابرل

٦ — علم نفس الشواذ — تأليف وليم مكروكل

منهم يتخذ له امرأة يقيم معها مادام في البلدة ويجامعها الى ان يرحل عنها وقد بقيت هذه العادة شائعة » ويؤيد ذلك ماورد في الرحالة الانكليزي هاملتون من انه وجد «في مدينة سنان في اليمن مساسرة للنساء فكل غريب لامأوى له يمكنه ان ــ يتزوج ويتبلد بقيمة زهيدة وبطريقة سهلة وهو ان يتفق مع الامرأة التي تعجبه على الثمن والمدة التي يقيمها معها اسبوعا او شهرا او سنة فيذهب معها امام القاضي ويسجلان اسميها في كتاب عنده مع شروطها ولا يكلف ذلك سوى شلنا واحدا « خمسون فلسا » ويتم الزواج بوضع الرجل يده بيد المرأة امام القاضي يحلها ان يفترقا برضاهما متى شاءا ولكنه اذا افترق احدهما قبل انقضاء المدة فيجب ان يدفع للآخر القيمة التي اتفقا عليها » ويرى ويلكن «ان عرب الجاهلية لم يكونوا يهتمون بالزواج الشرعي ويقيم دليله على ذلك بشيوع نكاح الذواق وهو عقد نكاح دون شرط يمكن حله عندما لا يجد احد الطرفين فيه لذة وارتياحا . وكان يضرب المثل بزواج ام خارجة فيقال «واسرع من نكاح ام خارجة » التي تزوجت باربعين رجل وكانت ذواقة تطلق الرجل اذا جربته وتتزوج بآخر . ورغم هذا فقد ظهر الحب في الجاهلية في نكاح الاختيار الذي نتج عن الزواج الداخلي « داخل القبيلة » وهو مؤسس على اتفاق الطرفين ومحبتها المتبادلة عكس الزواج الخارجي او نكاح البيع «بيع الرجل ابنته خارج القبيلة» والظاهر ان الحب العذري والحب العاطفي والخيالي والحب بمعناه الحاضر كوسيلة للزواج لم يكن ليظهر الا حينما خرج العرب من الجزيرة واحتكوا بالمدنيات المجاورة وعرفوا القصور والجواري والخطايا فكان ان طغت المادة وبانت ــ الفوارق بين الناس فصار الموسر منهم يمتلك مايستطيع من النساء بعد ان يبذل في انتخابهن المال ويوصد دونهن الابواب كبقية امتعته ولم يكن حبه لهن الا لانهن سبب لذته الغريزية . اما من عز عليه المال فقد كان الدافع الجنسي فيه يتحول بطريقة التسامي الى الحب العذري او ــ الحب الرومانتيكي وهذا مايفسر ظهور اشهر شعراء النسيب والغزل في هذه الفترة وجلهم فقراء معوزين دفعهم الحرمان وكبت الغريزة الجنسية الى سلوك هذا الطريق ، اما غير الشعراء منهم فقد برزوا في مجالات الادب والدين وكلها مظاهر لتسامي الغريزة الجنسية رغم انه قد يقال بان الاسلام شرع الطلاق واطلق حرية الرجل فصار الرجل يتزوج ويطلق حتى قيل ان محمد بن الصباغ البغدادي الذي ناهز الخامسة والثمانين كان قد تزوج تسعمائة امرأة اي انه لو كان تزوج في الخامسة عشرة لكان ياخذ في كل سنة ثلاثة عشرة امرأة . اقول رغم هذا فان هذه الحرية كانت مقيده بروادع دينية لان ( الطلاق يهتز منه عرش الله ) وعقبات مادية لانه ليس من المتيسر دفع المهور التي شرعها الاسلام كما هو الحال في قضية محمد بن الصباغ البغدادي . ولا يزال مجتمعنا الحاضر على هذه الحالة فالحب عندنا قد يكون في بعض الحالات كوسيلة للزواج رغم ان الزيجات التي لم يسبقها الحب برهنت على متانتها ودوامها .

ويمكن معرفة منزلة الحب عند الاقدمين بمقارنته عند القبائل الهندية المتوحشة كما في امريكا حيث اشار ( برنتون ) بانه لايوجد عند بعض القبائل كلمة تؤدي معنى الحب بينما يوجد عند بعضها مايقرب من الستمائة مركب لفعل « الحب » كما انه قال بان كلمات الحب التي يستعملها هنود امريكا تعبر عن هذا المفهوم باربعة ــ طرق .

١ ــ صرخات عاطفية غير واضحة الالفاظ

٢ ــ تأكيدات على المطابقة والمشابهة .

٣ ــ تأكيدات على الاتحاد والضم .

٤ ــ تأكيدات على التمني والرغبة والشوق .

واضاف الى ان معظم هذه الافكار تكمن وراء تعابير الحب في اللغات الآرية ولكن القبائل الهندية الامريكية كانت قد بزت الآريين القدماء بما لها من تعابير تعد جذورا لكلمة الحب بالمعنى الروحي المطلق . ولعل الانسان القديم لايخرج بتفكيره عن هذا الصدد وقد قال بان الحيوانات ولا سيما الطيور تبدي نوعا من الحب العاطفي وقد اقام دليله على ذلك بموت بعض الطير جوعا عند فقدها اليفها ولا ريب ان الانسان وهو الذي يمتاز بعقله عن بقية الحيوانات قد ادرك هذا النوع من الحب الوجداني في تلك العصور .

ومن الجدير بالذكر هو أنه لم يكن للحب الوجداني اي ذكر عند الاغريق القدماء لان اشباع ــ الغريزة الجنسيه

عندهم لم يكن ذنبا اوفعلا معيبا بل كان الاغريقي يتشد لذته الجنسية خارج بيته اذا مافقدها فيه . وكان الشعراء الايونيون وهم من الاغريق القدماء يعتبرون النساء آلة للهو واساسا لتكوين العائلة ؛ اما الحب الحقيقي عندهم فكان هو حب الجنس المماثل وهذا مايظهر من اطراء [ الكمان ] لفتيات اسبارطة — عندما اراد اكرامهن فقال عنهن [ الاصدقاء الاناث ] وشبهه [ ثيوجنيس ] الزواج بتربية الماشية وجعل [ اسكيلوس ] حتى الاب يدعي بان بناته كسوء سلوكهن اذا ماتركن لانفسهن ولم يكن هناك حب جنسي في [ فوسليس ] وفي [ سوفوسليس ] لم يكن يقع في شراك الحب غير النساء . وكان الاغريق الى فترة متأخرة يزدرون الحب ولا يجدونه جديرا بالاظهار او البحث في مناقشاتهم العامة . ولكن في [ ماكنا كريشيا ] كان للنساء اهمية اكثر مما هن عليه في اليونان . حتى اذا جاء العصر الاسكندري صار الحب مسألة حياة او موت كما اكد ذلك [ بناك ] ولا سيما في [ اسليبادس ] وظهر الحب بعد ذلك في الحياة الاوربية وقد اشار [ كاستون باريس ] الى ظهوره في اوربا المسيحية في الشعر ابتداء وصار النقطة الهامة في الحياة البشريه والقوة الدافعة للاخلاق ولكن هذه المفاهيم الخيالية فشلت في الولوج الى اذهان الجموع الاوربية التي كانت لما تزل مستمرة على اعتبار الحب عملا فجا للعقاربة الجنسية .

وقد تطرق [ برتراند رسل ] في كتاب الزواج والاخلاق الى الناحية التاريخية للحب فرسم لنا القرون الوسطى بظلامها الحالك وبين ان الحب كان في الحضيض لانتصار البربرية ، وفي عهد الكنيسة اعلن ان اى اظهار للعاطفة الجنسية يعد ذنبا ولكن رغم ذلك كان قادة الكنيسة يتمرغون باوحال الرذيلة حتى انه قيل ان بعض الاساقفة كان يعاشر ابنته وانه في انتخاب رئيس ديرفي سنة ١١٧١ في كنتربرى وجد بعد التحقيق ان المنتخب سبعة عشرة طفلا في قرية واحدة وانه في سنة ١٢٧٤ ظهر المدعو « استل بيج » مايقرب من الخمسة وستين ولدا وحتى بعد اصلاحات البابا كريكوري السابع لم تتغير مفاهيم الكنيسة بل تعاقدت هي والبربرية قبلها على تلويث كل مايتعلق بالحب

وقد اشار « برتراند رسل » الى نوع من الحب الروحي اوحب الفرسان الذي ذكره شعراء فرانسة وبركندي وقد كانت الفروسية تعبد هذا الحب وتضع له قوانين خاصة حتى اصبح الصوبة متقنة بايديهم وكانت اغلب قوانينه خرقاء تصدر عن بلاطاتهم التي انتشرت في انحاء اوربا وظل بعضها قائما حتى الان ولكن لاينكر انها غرست في قلوب الرجال احترام النساء ومجاملتهن مما نراه اليوم عند الغربيين كما انها ادت الى استنكار تصريحات الكنيسة والمطالبة بان ينعم المحبون بما وهبهم الله من نعمة .

ينتج مما سبق ان الحب الجنسي هو مصدر هذه الصور المتعددة للحب وانه لولا الحرمان والكبت لما ظهر الحب العذري « الرومانتيكي » الذي يجب ان يكون موضوعه سيء الثمين وصعب المنال ويكون معجوبا بتبجيل واحترام ينفي اية رغبة للتقارب الجنسي . ومركب كهذا من العواطف المتضاربة يمكن تفسيره بسهولة فللكنيسة والبربريه عملا سويا على الحط من قيمة الحب الطبيعي حتى اصبح من الصعب توافقه مع الشعور بالتبجيل لشخص المحبوب . لذا فالحب الذي تغني به الشعراء انقرض كان حبا طاهر الذيل . فاللوعة والصبابة والاشتياق جزت التربة الصالحة لازدهار الاخلاق الفاضلة ويسرت للعامل الروحي ان يسود على بقية الاحساسات حتى اذا مر الزمن كانت هناك هوة عظيمة بين هذا النوع من الحب المثالي والعلاقة التناسلية مما ادى الى ان يأخذ بعض الناس بفكرة تقسيم النساء الى فئتين عظيمتين احدهما يمكن قيام العلاقة الجنسية معهن واخرى تمكن احترامهن وحبهن ولا ريب ان هذه الفكرة ظاهر خطئها ولا يمكن قبولها لانها تؤدي بالمرأة المحبوبة الى عرشها المقدس مصحوبة بحقارة الغريزة الجنسية كما تؤدي بالتالي الى بقاء هؤلاء النساء عذارى وهذا لايتفق والمنطق اوالواقع .

يتبع

يحيى جمال الدين


المحامي

السيد هاشم الحكيم

يتوكل في كافة الدعاوى داخل النجف وخارجها